الهجرة الكبرى في سبيل السلام

للأستاذ محمد محمود زيتون

« . . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . »

قرآن كريم

لم تكن هجرة النبي عليه السلام إلا مرحلة من مراحل الدعوة إلى السلام ، فقد دعا العرب إلى الحق والخير ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فآذوه في شخصه وأهله وصحبه ، وطوى الزمن ثلاثة عشر عاما ، وهم بين مضروب ومشجوج ومعذب بالرمضاء تارة ، وبالحديد والنار تارة أخرى

واحتل المعذبون مكانهم في التاريخ ، وتلألأت صفحاته بآل ياسر وبلال وخباب وزنيرة ، أولئك الذين ابتلوا فصبروا ، وامتحنوا فشكروا ، وهل الإيمان إلا الشكر والصبر

وإنها لكبيرة على النفس أن تحتمل من العنت والرهق ما لا تطيق ، وأكبر من ذلك أن يغير عشرات الرجال وقليل من النساء معهم ، مجاهل الجزيرة في سنوات : فإذا الوجه العباس يرتد يساما ضحوكا ، والقلب المتحجر يرفض بالرحمة والرقة ، والعقل البليد يتفتح لنور الحق ، ويستجيب لصوت السماء

وكان طبيعيا أن يكون الجهر بالإسلام بمثابة إعلان الثورة على جميع الأوضاع المألوفة ، ولكن لم يؤلف عن العربي سكوته على الضيم والهوان ، فكيف بهؤلاء الصفوة المستنيرة يفتنون في دينهم ، ويستضعفون في وطنهم !

تلك المشكلة التي تتطلب الحل المعقول ، وإن كان الوقت لم يعطلها بالتردد والتخير كالمعهود في أشباهها ونظائرها ، فقد تم إعداد الحل المسعف ، ومرعان ما نزل من السماء على لسان محمد ، ومضى أتباعه في الطريق المستقيم

ذلك بأن دعوة الإسلام ليس لها أن تنحدر إلى مخلفات الجاهلية فتقاوم الإساءة بالإساءة ، وتقابل العدوان بمثله ، وإلا كان دين الاسلام متناقضا مع نفسه : يتنزى الدم من يديه ، وتتساقط الأشلاء من بين شدقيه

والحل الذي يستقيم مع روح هذا الدين هو « الهجرة » المرسومة في بدئها وختامها المليئة بمدخراتها للتاريخ إذا أعوزه الكشف عن مواطن العبرة ، ومظان الفخار ، وليس بدعا من الأحداث أن يهاجر محمد ، فقد سبقه لوط إذ هاجر بأهله ونزل بهم بالمؤتفكة . ولكن ما أصعب الهجرة من الوطن على المواطن المضيم

فما بال محمد وتابعيه تهون عليهم مكة ، وفيها بيت الله الحرام وبها الأهل والولد ؟ ألم يقف محمد في وسط مجلس يوم خرج مهاجراً ، والتفت إلى الكعبة فقال : « إني لأعلم ما وضع الله بيتا أحب إلى الله منك ، وما في الأرض بلد أحب إليه منك ، وما خرجت منك رغبة ، ولكن الذين كفروا أخرجوني »

وأمعنت قريش في الأذى والفتنة من كل وجه ، ولما شكا المسلمون إلى نبيهم وقد ضاقوا ذرعاً قال لهم « تفرقوا في الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم » وأمرهم بالخروج إلى الحبشة « فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد » وخرج حزب الله

وتهامس الأغرار : إنه فرار ، واستدرك الدهاة : بل استنصار . حقا ، إنه فرار بالأمانة خشية الضياع ، لهذا قال النبي الرسول « من فر بدينه من أرض إلى أرض ، وإن كان شبراً من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبرهيم خليل الله ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم » ، وحقا إنه استنصار للدعوة من أتباعها فيما وراء الحدود ، ولكن هل سكتت ثائرة من قال إنه فرار ، وهل

أجدى دعاء القائلين بأنه استنصار

وفر أبو بكر بدينه يعبد الله بأرض اليمن ، لولا أن أخذ ابن الدغنة له الجوار من (القارة) شارطين عليه أن يتعبد بداره ولا يستعلن ، ولان أبو بكر فتقبل ورجع فابتنى فى داره مسجدا أخذ يصلى فيه ويقرأ القرآن ويرفع صوته ، والبكاء يغالبه ، والناس يتهافتون عليه مسلمين من كل صوب ، فلما كلمه صاحب الجوار قال له : « رددت عليك جوارك ، ورضيت جوار ربى »

وضربت قريش الحصار على شعب أبى طالب فلم يتمكن أهل النبى من البيع والشراء والمصاهرة ، وأضر الجوع بهم ، ولاسيما بزوجه خديجة ، وكادوا يهلكون من عند آخرهم ، وبعد موت خديجة وأبى طالب اشتد الأذى ، وأخذت المؤامرات تدبر فى الظلام لاغتيال محمد .

هذا وهو ماض فى سبيل الدعوة ، لا يمل من لقاء الحجيج فى المواسم ، والاستكثار من القبائل ، بينما فراعنة قريش يحاربونه بكل ما يسمعهم به قلوب مريضة ، ونفوس منحلة ، ومفاسد مستحكمة ، والأصنام تستبد بعقولهم أيما استبداد

وما يكون لنبى السلام أن يهدم السلام ، وما ينبغى لمنطق الغريزة المقاتلة أن تستثار فلا تستجيب ، ولكن القسامى بها هو للطلب الكريم ، والأمنية الكبرى ، فما هو إلا أن تراكض المسلمون مهاجرين إلى يثرب تاركين المال والعيال ، لم يجردوا سيفاً ، ولم يتنكبوا رمحاً ، بل تجردوا للسلام ، إلى حين ينتظم السلاح فى أيدى الخصوم ، وحاشا لأهل الإيمان أن يطلبوا الثأر على نحو لا يشرف أقدارهم

لهذا قال أبو أحمد بن جحش فى هجرته :

فكم قد تركنا من حميم مناصح
وناصحة تبكى بدمع وتندب
ترى أن وتراً نائياً عن بلادنا
ونحن نرى أن الرغائب تطلب

واجتمعت بدار الندوة نزعات إبليس بنزوات الجبت والطاغوت ، وانطفأت فى الحال جذوة التدبير ، وانقطع حبل التفكير ، فما كان اجتماع قريش هناك إلا لاغتيال محمد ، وذلك أيسر ماينتظر من أصحاب الفراغ ، بل هو الشيء الذى لاتسعفهم الغريزة بما فوقه

ولا أقل من أن يجد العدو مصرفاً للضغينة المكتومة فيما دون غرضه الأول ، أما إذا تركوا محمداً فى وجهه إلى يثرب ، فإن له بها أنصاراً ، وإنهم لناصروه ، وإنه لفاتح بهم مكة على أهلها عاجلا أو آجلا

ياله من يوم ! كلما عكس من خيالهم وتحدى كيدهم ، لايستطيعون له صرفا ، ولا يزيدون معه إلا تضييقاً على محمد وتنكيلا بمن سلك سبيله

خرج صهيب الرومى عاله تخيروه بين نفسه وماله، فهجر المال، وهاجر بالنفس ، وربح صهيب على كل حال ، وخسر هنالك المبطلون . وخرج أبو سلمة ، ولما أرادت صاحبته أن تلحق به ومعها طفلها ، خيروها بين ابنها ونفسها ، فتركت فلذة من كبدها فى أيديهم ، وخرجت مؤمنة بأنه وديعة فى يد الله ، وفتنوا من فتنوا، وحبسوا من حبسوا، ولو لم يكونوا قد انشغلوا بهذا القليل لتبددت الهجرة تحت هاتيك الضغوط، ولفظت الدعوة آخر أنفاسها

وأطلع الله رسوله على دار هجرته ، فأخبر بها صاحبه أبا بكر الصديق الذى طالما كان يستأذنه فيستأجله النبى حتى أراد الله لها « صحبة » فى الهجرة الكبرى إلى الله ، وأعد أبو بكر ماله كله ليهاجر معه ، وتواعد مع النبى على ساعة الخروج من الليلة الفارقة بين العدوان والأمان ، الفاصلة بين الشر المهجور والخير المراد

وتسجى على بالبردة الحضرمية الخضراء ،ولزم حزب الضلال باب الدار ، وسهدوا أجفانهم ، وكدوا أذهانهم، فما هى إلا الخيبة التى لابعدها ، على الرغم من الصفوف والسيوف، وما هو إلا نصر السماء (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

ولبثا ثلاثا بغار ثور ، والطلب لا ينقطع ، وكان أبو بكر يسمع القوم يتهامسون ويتخافتون ، فيأخذه الخوف من كل سبيل، ولكن الذى أعمى بصائر الكفار عند خروج النبى من الدار هو الذى ضلل حدسهم وهو فى الغار (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

وخرجا من غار الخفاء إلى جار الجلاء ، ومضيا على راحلتيهما بين تصويب وتصعيد ، وكلما رأى أهل البادية أبا بكر سألوه عن هذا الرجل الذى معه فيقول لهم فى تورية صادقة (هذا الرجل يهدينى السبيل) ، فلما وصلا إلى الجحفة تحرك الحنين إلى مكة

فى جوانح نبى الوطنية ، فتذكر ما كان من قريش معه وهو يدعوهم إلى ربهم ، ومن ثم نزل عليه جبريل بقول ربه (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)

ولم يمض على رحيلهما ثمانية أيام حتى أشرف النبى على المدينة فقابله أهلها ، والبشر تندى به وجوه الرجال ، وبالغناء تتجاوب دفوف الجوارى ، وبالشعر تتعالى أناشيد الفتيان ، وبالحراب تتنوع ألعاب الأحباش

والأنصار يتسابقون إلى خطام الناقة ويقولون : «هلم يارسول الله إلى المنعة والقوة» وهو يقول لهم «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»

ولم تلبث إلا قليلا حتى أناخت ، لا فى (المنعة والقوة) ولكن فى مبرك « الأمن » ومناخ « السلام » حيث المربد الذى لسهل وسهيل ابنى عمرو والذى اختاره نبى السلام ليكون منذ الساعة الأولى له بالمدينة دار السلام

وتفرق المهاجرون على دور الأنصار ، ونزل النبى مع رحله عند أبى أيوب الأنصارى ، واجتمع بهم جميعا بدار سعد بن خيثمة ، وأعلن « دستور السلام » منذ اللحظة الأولى فقال :

« يأيها الناس ، أفشوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»

وأسرع إلى موادعة يهود المدينة ليستل السخيمة من نفوسهم فلا يمكروا صفو السلام ، وعقد معهم معاهدة كتب فى ختامها « وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكان له الأمان ولليهود التأمين ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه

ثم التفت إلى الجماعة ينظم أمرها ، ويجمع شملها ، ويؤلف وحدتها ، فابتنى « المسجد » ليكون بمثابة دار السلام لطلاب السلام ، وكان بناؤه نقطة التقاء الهجرة والنصرة ، فسرعان ما أصلح النبى فيه العلاقات بين الأوس والخزرج ، وعجلان ما نزل فيه التأييد من السماء « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين »

ودوى صوت بلال بالأذان للصلاة فكان دعاية لانتصار الهجرة وإذاعة لانتشار التوحيد ، ومتى جلجلت البطاح بصوت « الله أكبر » وتجاوبت بصوت « لا إله إلا الله » عرف كل من لا يعرف أن هذه الهجرة الكبرى إنما جاءت لتوحيد الصفوف ، ووحدانية المعبود ، ووحدة الكلمة ، وتلك هى العناصر الأساسية التى لابد من أن يتألف منها السلام

وتتابع المهاجرون أرسالا ، والمسجد يغص بهم يوما بعد يوم والمسلمون والمؤمنون أخوين أخوين سواء فى الهجرة أو النصرة وإنه ليوم خالد إذ يجتمع بهم نبيهم فى هذا المسجد المبارك ، ويسأل عنهم ، فلم يزل يتفقدهم ويبحث إليهم حتى انتظم شملهم ، ثم قال لهم :

— « إنى محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم ، إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا ، ثم تلا (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وإنى أصطفى منكم من أحب أن أصطفيه ، وآخى بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته .. قم يا أبا بكر .. » ، وقام أبو بكر فجثا بين يديه فقال له

— : إن لك عندى يدا ، الله يجزيك بها ، ولو كنت متخذا خليلا لا تخذتك خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل ، فأنت منى بمنزلة قميصى من جسدى » . وحرك النبى قميصه بيده . — « إدن ياعمر .. » فدنا ، فقال له النبى :

— : « كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص فدعوت الله أن يعز بك الدين أو بأبى جهل ، ففعل الله ذلك بك ، وكنت أحبهما إلى الله ، فأنت معى فى الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة . » وآخى بينه وبين أبى بكر فى المسجد الذى أصبح بيت المحبة والتعارف ، وصار المسلمون أرواحا مجندة : إلى الله أسلمت الوجوه ، وإلى الكعبة توجهت القلوب ، وخلف رسول الله انتظمت الصفوف

وأقبل سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف وقال له : يا أخى إنى من أكثر الأنصار مالا ، فأنا مقاسمك ، وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له عبد الرحمن وقد هاجر ولا مال ولا أهل : يا أخى بارك الله لك فى أهلك ومالك

كل ذلك من إشعاع الإيمان الذى انبثقت عنه الهجرة ، ومن وحى المسجد الذى قال فيه النبى الكريم « من ألف المسجد ألفه

الله » ، وقال « إن للمساجد أوتادا : الملائكة جلساؤهم ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم ، جليس المسجد على ثلاث خصال ، أخ مستفاد ، أو كلمة حكمة ، أو رحمة منتظرة »

وتفيأ النبي ظلال السلام وارفة منذ نزل بين الأنصار ، لذلك قال في مقام الذكر والشكر « لولا الهجرة لكنت من الأنصار » الذين نصروه وأكرموا من معه « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. »

ويتأكد هنا لكل منصف أن الهجرة الكبرى لم تكن إلا إسراء بالأرواح قبل أن تكون انتقالا بالأشباح ، وبذلك تميزت « الهجرة الكبرى » إذ ارتفعت فيها الإنسانية من الهاوية إلى العالية ، وخلفت فيما وراءها غريزة الوحش ، وشريعة الغاب ، ومضت في تصعيدها إلى القمة ، وصدق الشاعر

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دونا

وسئل النبي : ما أفضل الإيمان ؟ فقال : « الهجرة » . فسئل وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » . لهذا هجر المسلمون عناصر السوء قبل أن يهاجروا من الضلال والعدوان في بلد أراد الله فيه للناس الأمن والسلام ، وفيه البيت الحرام ، (ومن دخله كان آمنا)

وظل النبي يحرس السلام ، في يقظة وحكمة ، فقد قتل قتيل بالمدينة ولم يعرف قاتله ، فصعد النبي المنبر وقال « يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء »

ومر شاس بن قيس حبر اليهود بالأوس والخزرج وقد اجتمعت كلمتهم ، فغاظه ذلك الائتلاف بينهم فقال : قد اجتمع بنو قيلة ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، وأمر فتى من اليهود بالجلوس بين الأنصار ، وإثارة ما كان بينهم من مقاولة يوم بعاث ، وظل بهم حتى تنازعوا وتواعدوا على الحرب ، وخرجوا بالسلاح واصطفوا للقتال

وعلم بذلك حارس الأمن وحامي السلام ، فخرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وقال : « يا معشر المسلمين ، الله الله ، اتقوا الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم .. »

فعرفوا أنها من نزغ الشيطان وكيد العدو ، فبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع النبي وقد نزل عليه (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ، يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وإذ يقول نبي الرحمة « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » إنما يدل على أن الكفر هو العدوان وأن الإخاء هو السلام بل الاسلام الذي هو أن يسلم لله قلبك وأن يسلم الناس من لسانك ويدك »

ومضى على النبي عامان نشر فيهما لواء السلام على أهل المدينة واطمأنت فيها النفوس ، وأصبحت آيات القرآن تخاطبهم (يأيها الذين آمنوا) وقد كان الخطاب بمكة « يأيها الناس » فما كان هذا التغير إلا عقب الهجرة التي تصافت فيها الصدور ، وتوارت الشرور

فلما تأبى اليهود والمنافقون والمشركون على دعوة السلام ، لم يكن بد من أن يتنزل على محمد الإذن بالجهاد (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير) فكان الجهاد من لزوم ما يلزم السلام ، شأنه في ذلك شأن الصفاء لا يرتجى إلا في غمرة العواصف والأعاصير ، ولابد دون الشهد من إبر النحل

واليوم ونحن على باب سبعين عاما بعد ثلثمائة من هذه الهجرة الكبرى ، نرى أن فيها للعالم كله العبرة كل العبرة ، فما أحوج الانسانية إلى هجرة السوء من كل لون ، ونصرة الحق في كل حين ، ودفع الشر والخصام بنشر الخير والسلام

محمد محمود زيتون